حين ينطق الصمت

قصة بقلم محي مظفر

ـ انها الحقيقة .. ولكن
ـ انها لا تعجبني .. ولا ازال مصرا على ان هذه أحسنهم ..
ـ انعرفين كم هي بليدة هذه المرأة ؟
ـ تلك حقيقة واقعة لا يجادل فيها أثنان .. ولكن .. لنفرض ..
ـ اي حقيقة ؟
ـ لا ريب .. في ذلك ، لا ريب .. انه أمر حتمي والحقيقة لا تخفى على الحاضرين ..

كان صوت يصيح وآخر يؤكد وثالث يتساءل ورابع يؤكد وتتلاطم الكلمات وتروح تضرب الارض بقدمين من حديد . والابدان مراصه واحدها يزاحم الاخر فيلتصق اللحم باللحم وتمتد الالسن في تحركات رشيقة تارة ومتماطلة متباطئة تارة اخرى .

والسؤال يلح والكلمات تتساقط ولكنها صماء بكماء . ربما كانوا يسألون عن الشمس أو عن الضياء .. حقائق تفسر نفسها بنفسها .
وجلست تقلب النظر بينهم تنتظر حلا للغز ، تارة تضحك،واخرى تتكلم .. ثم يبتلعها الصمت .. وتختفي في ردهاته الواسعة .
ـ كم تبدين رائعة هذه الليلة !

وتنبه الازدراء في نفسها .. هذا المخلوق البليد .. هذا الابله كيف يصفها بالجمال .. الا يستطيع ان يقرأ في عينيها ؟ الم تنبئه انفاسها اللاهثة خلف الكلمات المصطنعة .. بانها تعاني من مرض خطير .. وها هو يصفها بالجمال ؟!

والتفت الى ثوبها الاسود المخملي .. المحلى بشرائط بيض .. انه ثوب جميل .. تعمدت ارتداءه لا لما فيه من جمال ، ولكن للونه ، للذكريات التي يحملها .. وتذكرت ان فارس ، حين لبست هذا الثوب ، وصفها هو الاخر بالروعة ..

فهمست بين شفتيها .. « انني حقا مجرمة .. » .
ثم نظرت اليه وابتسمت في وجهه ابتسامة عريضة .. متصنعة الامتنان .. سرعان ما احست اثرها ان ثغرها تقلص وان شفتيها زمتا كأن اعصابها فقدت السيطرة على تلك التشنجات ..

واشاحت بوجهها كي تتأمل في نفسها هذه الظاهرة .. وتمنع هذا الغريب من فهمها ..
« يجب أن اضحك .. يجب أن اظهر المرح .. اذ ليس هناك سبب ظاهر يدعو الى الضجر أو الحزن » .
ووجدت الالم يذبح اعصابها رويدا رويدا كالجزار حين يقطع رقبة الشاة .. فيبدأ باسفل الرقبة .. وينتظر بعض الوقت .. ليتوغل بسكينه أكثر .. فاكثر . والشاة تحتايده لا تملك الا ان تنزف.
ليس من حقها ان تتألم هنا .. في هذه الرقعة التي تضمها كل يوم .. وتضم الى جانبها هذه المجموعة .. نفس الوجوه ـ تراها كل يوم : خالتها وامها .. وزوج خالتها وعمها .. وابوها وابن عمها .. يزيدون وينقصون بين حين وآخر .. كآلات الشطرنج لا يتغير لونها ولا شكلها ولا طبيعة تحركاتها ..
... يجتمعون في هذا المكان الصغير من الارض .. والحياة بينهم ماء يمر في الساقية في خط مرسوم .. ولا وجود لحياة اخرى وراء خطيها المتوازيين ـ وان كان الالم يملأ أرجاء الارض .. مخلفا هذه البقعة في هدوء .. فليس هناك الم ـ وليس هنا حزن ـ انه رهن بها وحدها وعليها ان تتحدث عنه لنفسها بلغة الصمت..وتتحدث اليهم بلغة النطق .. لغتها .. ولغتهم .

يجب اذن ان تضحك وسكين الجزار مسلطة على عنقها .. كلما اهتز جسدها .. التقى بحافتها الحادة . فادارت وجهها بين الرؤوس .. وامتقع لونها .. وتخضلت عيناها متوسلة :

« لو ان الضجيج يخف .. لو ان المرح يزول .. لو يصمت زوج خالتي .. يؤجل بديهياته السياسية ليوم واحد فقط .. لو يترك ابي الحديث عن سيارته ، لو ان امي تكف عن وصف طبخات الطعام .. لو ابن عمي يكف عن نظرته البلهاء . وهذا الغريب الذي اتى معه اليوم .. يقول لي انني جميلة » .

كيف يمكن لهذا المرح الهستيري ان يضفي على وجهها رونقا حيويا ؟
الغد سيأتي صباحه قريبا .. ولن يكون فارس بين الاحياء .. وهي تضحك .. وتتكلم وتروح وتجيء .. كالامس لم تتغير يداها ـ ولم يقصر شعرها .. ولم تستطل عيناها .. والغد آت قريبا .. فماذا يحمل في ساعاته .. رنين جرس التلفون ؟ حيث ننصب في اذنها كلمات فارس حانية دافئة .. متدفقة حية .. تنبئها ان لهما في المساء لقاء !! واذا اتى المساء ومضت ساعات النهار بطيئة متثاقلة .. رائعة مجنونة .. هل تلتقي عيناهما .. هل يتلامس كفاهما .. وتنتقل الكلمات بينهما سريعة مبهورة او مفقودة يحاولان ان يبحثا عنها بين صمتهما المتكلم .. ام قد انتهى كل شيء .. وامسى حصادا للرياح..
اذن كيف يمر الغد .. كيف تكون ساعاته ؟ هل تسير اثر تحركاتها في الامس واول امس ام سيكون لها وقع اخر ؟ ماذا ستفعل في اليوم الطويل ، وهذا الغريب يقول انها جميلة ؟

وتنبهت مرة اخرى .. شدتها الى الارض اصوات هذه المجموعة .. وتأملت الغريب عن كثب :

« كيف يستطيع الرجل ان يمتدح جمال امرأة شرهة مثلي ؟ » .
واستمرت .. تأكل كل شيء .. اي شيء تمتد يداها اليه ورأسها يدور .. وهي تصرخ .. « لا شيء اجمل من الاكل » ثم ضحكت ضحكة عالية تنبه لها الحاضرون .. وهي تمسك طبق السلطة وتفرغ في جوفها ما احتوى من مواد .. وقال الغريب :

« انت مرحة .. شديدة المرح » .
« يا لغباء هذا الغريب .. » قالت عيناها .. ثم نفثت باستهزاء.
مرحة ؟! وكيف لا .. الم افقد اليوم وجه الحياة .. الم يقطع من رسغي شريان دمي . يجب ان امرح .. لان من اضعته ملك لي وحدي وسر كبير يعيش في مملكتي .. وهي بعيدة عن عالمهم بعد القمر عن هذا الكوكب .. ليس من حقي ان ابكيه علانية لان اعلانه جريمة كبيرة وان كان اخفاؤه جريمة كبرى . الفرق هو ان الجرم الاول

له دساتيره الخاصة المعترف بها اما الثاني فلا دستور له وان كان اكثر قدسية » .

كانت تريد ان تصرخ ، وتلطم ، وتمرغ نفسها في التراب . كانت تريد ان تهرب من بيتها ، وتذهب الى بيته ـ تجلس في احدى زواياه .. تصرخ مع النسوة .. تمسك يد اخته تقبلها .. وتزحف نحو امه تحضنها وتقول لهم انها منهم .. فقد ضاع منها بعد خمس سنوات ..

كانت في السابعة عشرة .. وكان في التاسعة عشرة حين بدأ يلف حول بيتها كما يلف الحجاج حول الكعبة .. وكانت ترقبه بشوق وخوف .. ثم تطل من الباب .. وتتجمع الدماء في وجهيهما فيفر هاربا ، تاركا لها عند الباب رسالة حب صغيرة .. اخذت تنمو مع حبهما حتى اصبح الحديث بينهما لا ينتهي الا بانتهاء دفتر الرسائل.

ونضج الحب ، كما نضجت ايامهما . واصبح الزمن دون وجودهما معا غير ذي معنى .. وبات موعد اللقاء على ضوء الشموع وبهرجة الشمس وشيكا .. فما هي الا دورة في الطيران مدتها خمسة اشهر.. ويعود اليها محملا بالهدايا ..

مات فارس صباح هذا اليوم .. في غارة على اراضي الاعداء ـ لا تدري كيف مات .. واين . اخبارها عنه لا تعدو بضع كلمات نعي سمعتها في الراديو وسمعت على اثرها ـ انه اصبح بطلا شهيدا ستخلده المدينة وان الشوارع والساحات والمدارس ستسمى باسمه وسيطلق اسم فارس على كل منطقة ..

حدثها مساء امس .. وقال لها :

« سنلتقي بعد حين .. هي ساعات معدودات اعود بعدها اليك وقد اصبحت حرا من وعدي الكبير ـ لابر بوعدي الاخر . . فقد اقسمت كما تذكرين اني .. » .

وضرب الاعداء طائرته ..

مات فارس .. دون ان يلتقيا .

كان يحدثها عن نداء حبه الكبير لشيء أكبر من نفسه .. ثم يدعوها الارض الصغيرة ـ لان حبه لها صورة مصغرة عن ذلك الحب الكبير .. حدثها عن انتصاراته ـ وحدثها عن حزنه وجروحه ـ ولكنه لم يحدثها عن الموت .. لم يخلق فارس ليموت .. وهو حي في نظرها .. لان جسده المنثور الان في كف السماء ستحمله الرياح الى كل صوب .. وسينتشي اريجه عند المساء على مرفأ الشمس الدامي.

وتأملت من حولها .. فارس ميت حي .. وهؤلاء احياء اموات..

« وما انا .. احية .. ام ميتة ؟ » .. انني اكلمهم واتحرك تحركاتهم .. تنطلق الضحكة من وجهي كلما التقت عيناي بعيونهم الكبيرة الفارغة .. ويسألون عني بقلق حين اصمت .. فالصمت رمز القبور .. لا لغة من يتحرك فوق التراب .. فانا حية ميتة .. لانني لا استطيع ان اصمت صمتا ابديا كفارس .. » .

ثم اجالت بينهم نظرها .. تتنقل بين الوجوه المتحركة الرتيبة.. فرأت افواه ابيها وخالتها وعمها تتحرك بشكل منتظم كساعة كبيرة خشبية .. لا تمل حركتها ..

فاحست بالوحشة تتملكها .. لان الحاضرين يتشابهون في غربتهم عنها .. ولا صلة لها بأي احد منهم ولو كان هناك اي اتصال لادرك احدهم أنها تعاني من سكرات مرض خطير : الموت في عنفوان الحياة .

وتجمع الحقد في عينيها وزمت شفتيها لتنفث في وجوههم الباهتة امنيتها المخبوءة ..

« لماذا لم يمت ابن عمي او هذا الغريب .. اليسا في عمر فارس .. بل واكبر .. الا يترتب عليهم جميعا القيام بواجبهم في الدفاع عن ... » .

« لم كانت الشجاعة والشهامة رهنا بفارس ؟ لماذا تحطم فارس ولم يتحطم غيره ؟ .. اكره هذه الوجوه .. اين السلطات .. اين الجيش يقبض على هذه الزمرة ويقضي على تفاهة احاديثهم .. لكي انطلق وحدي في صراخي .. الطم كما اشاء .. اضع نفسي تحت لهيب الشمس حتى يسيح دمي .. ويضيع عند سواقي الدماء الهادرة بلا رحمة » .

وتملكها شعور بالاختناق .. وجها امها وابيها يعيدانها ثانية الى الارض .. رغم غربتها عنهما ، فان هناك خيطا رفيعا يجذبهما اليها ويجعلها تشفق عليهما .. ضياع ابنتهما الوحيدة .. وهمست لنفسها: « لو يحترمان صمتي .. لنزعت عنهما ثوب الغرباء » .

وند عن احدهما صوت سرعان ما تبينت انه صوت ابيها يدعوها الى الحديث .. جاءها مغمورا بعيدا كأنه اجتاز اودية سحيقة..تنبه لصمتها ولكنه لم يدرك ما وراء الصمت .. وحمدت الله على ذلك ففرته عنها ارحم .

وتمنت لو تجد لها مهربا .. ولو لبضع دقائق .. تذهب هناك خلف الحائط الاخر .. تدق رأسها به لتمنع انفجار بركانها المتأزم .

ثم همست : « يا الهي ماذا اعمل لو انفجرت بركة الدموع في هذه اللحظة » واخذت تستجمع قواها وتدس في نفسها انفعالات غريبة :

« اني سعيدة .. سعيدة جدا .. فماذا خسرت .. لا شيء .. انه امر ذو قدسية ـ فقد مات في سبيل حب كبير .. فلن ابكي حبي الصغير .. وما هو الا من نسج الخيال .. انا خلقت فارسا ـ نسجته بخيالي واطلقت فيه روحا تقارب روحي وتتجاوب معها فيما تريد .. واستطيع ان اخلق من هذا الغريب مثلا انسانا اخر شبيها بفارس .. اطلق ما في نفسي من امنيات ثم اسكبها في كيان هذا الغريب .. في عينيه وقلبه .. بل حتى في ملامح وجهه .. استطيع ان اخلق منه فارسا اخر .. اصنع منه آلهتي كما يفعل البوذيون حين تتحطم آلهتهم بفعل قوة سماوية خارقة » .

« ما اسم هذا الغريب .. فائز او فوزي لا اذكر بالضبط ...

في الاسواق

قصة الحرب القذرة ...

في فيتنام !

اقرأها في رواية الروائي الاسترالي الشهير

موريست وست

السفير

كما يقصها سفير اميركي عين في سايغون ، فعاش مؤامرات المخابرات السرية الاميركية مع عدد من الجنرالات المتآمرين ، وخرج بمأساة شخصية تجسدت في صراع بين الاخلاق والانتهازية السياسية ...

ترجمها : نزيه الحكيم

منشورات دار الآداب

نفس الحرف الاول .. والملامح ماذا افعل بالملامح يا ترى .. عينا فارس سوداوان وهذا عيناه عسليتان .. فم ذاك وانفه معتدلان وهذان كبيران .. شعر فارس اسود .. وشعر هذا كستنائي ، ولكن هذه اشياء متقاربة لا اهمية لها .. الفارق الكبير ان قامة فارس اطول بكثير من قامة هذا الغريب القصير .. لا بأس .. سانغاضى عن الشكل .. ولابدأ بالشخصية فهذه اهم خطوة » .

وتنبه لها الغريب .. استقبل نظراتها الفضولية بترحاب بالغ.. وابتسم ابتسامة منتصر وهو يقذف في جوفه بقايا شرابه . ثم اتكأ على المنضدة يحتمي من نظرات الاخرين .. وهمس قائلا :

ـ هل اثرت اهتمامك بشيء ؟

فانتفضت في مقعدها اثر صوته الهامس بميوعة وتعجبت من وقاحته وجرأته على قراءة فكرها المغلق . هل يمكن ان يكون قد عرف ما يدور بصدري ؟ وقررت على اثر ذلك ان تزجره .. وتزجر في نفسها هذا العنكبوت المتسلل الى صدرها .. وردت عليه باحتقار تعمدت اظهاره :

« اجل .. اثارتني بلادتك ! » .

وامتعض الغريب وهو يبتلع الاهانة.. وسكت فالبوح بها سيجعله اضحوكة .. وهو لا يريد لنفسه هذا المصير المخيف .. فاشاح بوجهه منكسرا .. وكتمت ضحكة خفية من ردها اللاذع .. فقد استطاعت ان تجر اليها زميلا في صمتها المتكلم .. واصبح في الغرفة اثنان يبتلعان السم دون ان يملكا البوح به .. ويتكلمان بلغتين ، لغة النطق ، ولغة الصمت ..

وعادت ثانية الى سردابها المظلم .. والعنكبوت قد اخذت شباكه تتسع . وخطرت لها فكرة مخيفة : الاحياء .. تسوقهم الامال .. تخضر اعوادها عند ملامسة اول قطرة من قطرات الندى فتهرب العناكب ..

واغمضت عينيها باصرار .. ترفض كل غريب .. وهمست : « هنا ـ هنا ستكون مقبرتي في الحياة .. يجب ان اعيش واحتل مكاني بين حشود الاموات .. على هذه الارض » .

ولكن العنكبوت ما يزال في صدرها ينسج بين اضلاعها نسيجه الاسود وينفث فيه الكراهية الحقود وينطلق من عينيها وتندفق اشعاعاته على وجوه الحاضرين ، تنصب على ابن عمها .. والغريب .. وربما تتناول كل معارفها .. واقربائها كلما وجدتهم حولها يشمون الهواء ويمضغون اللقمة .

« ما ذنبهم ؟ » .. سؤال اعشى .. يبحث عن جواب مفقود .. وجدته ينبعث حيا .. من دهاليز سردابها المرطب .. وينضح ضوء خافتا دافئا ..

« يجب ان اكون حية .. ولا اؤمن بغير الحب .. يجب ان احب .. وافتح صدري للعاطفة النبيلة .. يجب ان اجمع كل حبي لفارس .. ثم انثر حباته مع الندى ـ عند اطلالة الصبح لتعيش في ارجاء الارض لان ما احمله من حب لفارس يكفي ان يصيب كل فرد وكل حجر .. وكل زهرة .. » .. وسرعان ما احست بالالم ينبض حيا في صدرها ، فهمست : « ولكني اريد فارس .. ان ابكيه على الاقل .. لو تسمحون .. لو تسمحون .. اريد ان المس رسائله .. اريد ان المس هديته الصغيرة .. اريد ان اتحسس كفي .. اريد ان اجمع الكلمات المتراكمة في اذني اضعها في صندوق صغير واحملها معي ليل نهار . وحين يأتي المطر .. ليغسل دموع الايتام ويدس في صدر الارض خيراته .. سانطلق في البراري .. لاجمع ما انتثر فيها من زهور بيض ارتوت من دم فارس . ساعلنها حربا على الحروب ... وصانعي الاحزان في الدروب يمطرونها بالرصاص . ويزرعون في وجهها الاشلاء والقنابل .. ويحرقون القمح والزهور » .

بغداد — مي مظفر

آخر الظل

شعر : حيدر محمود

لهثنا ، وراء السراب ..
قعدنا بظل خيالاتنا ..
عصبنا جراحاتنا ..
بالحراب ..
سكبنا على النار ، زيتا ونارا ..
ونمنا .. على وخز أناتنا ..
على سرر من عذاب العذاب !
مشينا مع الظل ،
ظل خيالاتنا الباهتات ..
الى حيث تذهب ، نذهب ..
عبر المحيطات ،
عبر الصحارى ،
وفي الفلوات ..
ليال مضت .. أشهر .. سنوات
نلاحقها ، وهي تهرب ..
نتبعها بالخطى المتعبات ..
نفتش عن آخر الظل ،
نبحث عن وهج الشمس ،
في وهج الشمس ..
نلقاه ، ما زال خلف السراب ..
لهثنا وراء السراب ..
شربنا ، ارتوينا ، ملأنا الخوابي !
سقينا نبات القفار الموات
فأخصب بالثمرات ..
وشدنا على الرمل ، للريح ، دارا ..
وجاء مع الريح ، طير ..
ففنى ، وطارا ..
جعلنا رمال الصحارى بساتين ..
تمرح فيها الاماني العذارى !.
ونمنا ..
ولكن على وخز أناتنا ..
وفي الظل ، ظل خيالاتنا
وما زالت الشمس ، خلف حقول السراب ..
نفتش عن وهج الشمس ،
في وهج الشمس ،
خلف السراب ..

عمان ـ الاردن — حيدر محمود